

تأجيل ذلك، هو رغبتنا في الانتهاء، أولاً، من طرفين نعتبر علاقتهما بهذا البحث ليست أساسية. ولكن قبل أن نبدأ في بحث العلاقة بين الشيخ وداعية القومية، ثمة سؤال يطرح: لماذا داعية القومية وليس غيره؟ إن جوابنا على هذا السؤال هو ما سيتوضح في ما يأتي.

تياران بدافع واحد

منذ أواخر القرن الماضي، وبداية هذا القرن، تبلور تياران رئيسان، تبادلوا عملية تصدر الحركة النهضوية في المنطقة العربية. التيار الأول، وقد عبر عنه بشكل خاص الاتجاه الاصلاحى الجديد في اطار الفكر الاسلامى الحديث، كما دعا ونظر إليه، رائداً هذه الحركة الافغانى ومحمد عبده، فيما اصبح يُعرف بالحركة السلفية الحديثة. أما التيار الثانى، فهو الاتجاه الاصلاحى «القرمى»، الذى انبثق في اوائل هذا القرن في صورة عدد من الجمعيات والمنظمات العربية للمطالبة بتحسين الوضع الذى يحفظه العرب، في اطار الدولة العثمانية، واجراء اصلاحات تشمل ادارة الدولة العثمانية. ويمكن التعرف على رموز هذا التيار بالعودة الى تاريخ تشكيل حزب اللامركزية، من شخصيات المؤتمر القومى العربى الاول الذى انعقد في باريس العام ١٩١٢.

لقد كان الدافع الرئيس في اساس نشأة كلا الحركتين واحداً تقريباً، وإن اختلفت المضامين الايديولوجية والمشاريع السياسية التى تبنتها كلتا الحركتين ودعت الى تحقيقها. هذا الدافع تمثل بالخوف المتزايد الذى باتت تشعر به الانتلجسيا العربية من خطر التوسع الغربى، وهو الخطر الذى تحول، بعد غزو ايطاليا لليبيا، وبعد هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان، الى ان اصبح مصدر فزع حقيقي في الاوساط العربية^(١٢)، التى باتت ترى في ضرورة اصلاح الدولة الوسيلة الوحيدة الكفيلة بصد هذه المخاطر جميعاً. ان الملاحظة الاساسية الوحيدة التى يجدر بنا ان نسجلها حول هذا المطلب الذى رفعته كلا الحركتين، اى مطلب الاصلاح، أنه كان يطرح بالتلازم مع التأكيد على مشروعية الحكم العثمانى. صحيح ان بعض الاصوات نادى بضرورة الانفصال عن الدولة العثمانية، ونادى بعدم مشروعية الخلافة العثمانية^(١٤)، لكن هذه الاصوات بقيت بدون صدى، بل اكثر من ذلك كانت مصدراً للاستنكار من قبل التيارين الرئيسين اللذين كانا يقودان الحركة الاصلاحية.

ان هذه الملاحظة، التى اردنا تسجيلها قبل المضي في بحث الجوانب الايديولوجية والفكرية التى انطوى عليها كلا المشروعين، تكشف، في الواقع، عن جانب هام في تاريخ العلاقة التى نشأت بين هاتين الحركتين، اى عن نوع التعقيدات التى كانت مطروحة في طريقة استجابة كلا الطرفين للتحدي الذى حاولا الاجابة عليه.

لم يكن الخطر العربى، الذى بدأ يواجهه السلفى، في أواخر القرن الماضي، موضوعاً جديداً بقدر ما كان يمثل ذلك، بالنسبة إليه، إعادة اكتشاف لتاريخ سابق. لقد كان الأمر يتعلق بتجربة وجدانية عاشها، قبل ذلك، في الذكرى التى ما تزال حية للحروب الصليبية، والمرارة التى خلفها سقوط دولة الخلافة العباسية في كتب التاريخ الاسلامى، والفقه السنى. ولذلك، كان الجواب الذى يطرحه داعية السلفية، هو نفس الجواب الذى طرحه، قبل ذلك بعدة قرون، فقهاء التشريع الاسلامى السنى، كما نظر إليه ووضع خطوطه العريضة الفقيه الشافعى، ابوالحسن الماوردى، في العصور المتأخرة لاضمحلال الدولة العباسية. اى الدعوة